التصوف في تاريخ المغرب

سعيد بنحمادة

تحوَّل التصوف في تاريخ المغرب إلى ما يشبه "عقيدة رسمية" لدى المغاربة، أو "شريعة أخرى غير ما أتى به محمد ﷺ"، كما جاء عند الونشريسي في المعيار، وهو ما يفسر كثافةَ الحركة الصوفية وسِعَةَ انتشارها، وتعدد أصولها واتجاهاتها ومؤسساتها ووظائفها، حتى قيل إن "المغرب الأقصى ... الأرضُ التي تُنبت الصالحين كما تُنبت الكلأَ"، وأن في "المغرب صلحاء وفقهاء وعلماء"، وأنه "ليس في بلد إسلامي آخر ما يعادل المغرب الأقصى في عدد الأولياء والعلماء"، والإقرار بأنه إذا كانت المالكية هي الركيزة الأول لتاريخ المغرب، فإن الرباط والزاوية هو الأساس الثاني، مما يفسر ترابط المذهب والعقيدة والتصوف في تاريخ الشخصية الحضارية المغربية كما يفهم من قول ابن عاشر:

في عقد الأشعري وفقه مالك وطريقة الجنيد السالك

أولا- كتابات من تاريخ التصوف بالمغرب:

1- ميشو بلير: مقال عن تاريخ الطوائف الصوفية بالمغرب، لاحظ بلير أن ظهور وتعدد الطوائف والزوايا هو تعبير عن "خصوصيات القبائل الأمازيغية" التي حققت من خلاله حاجتها إلى الاستقلال، وأن "المخزن" شجعها على ذلك حتى لا تتحد ضده. وهو ما يفسر كيف تحولت هذه الدراسة إلى مرجع لكثير من الأبحاث الكولونيالية التي تبنت خلاصاتها قبل أن تتطور إستوغرافيا التصوف اعتمادا على مصادر ودراسات جديدة (**الوثيقة 1**).

2- محمد مفتاح: :الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي"، وعبد اللطيف الشاذلي: "التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري": دراستان تركيبيتان تصفان جوانب من آلية تطور المجتمع المغربي من خلال التصوف، وما قام به الأولياء والرباطات والزوايا من أدوار ووظائف، وتوزيع المؤسسات الصوفية، بما يجعل التصوف الجنيدي في المغرب تصوفا مجتمعيا غير إشراقي أو عرفاني (**الوثيقة 2**).

3- ابن الزيات التادلي: "التشوف إلى أخبار التصوف". البادسي: "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف". أحمد زروق: "قواعد التصوف"، و**"عمدة المريد الصادق"**: نماذج من المصادر المغربية التي اعتمدها الباحثون للتعريف بالتصوف المغربي، سواء في الخطاب الصوفي ونُظُمه، أو فيما يخص الأدوار الاجتماعية الكرامات الصوفية (**الوثيقة 3**).

ثانيا- تحولات التصوف في تاريخ المغرب: يستند التصوف في تاريخ المغرب إلى كون الوَلاية من الموالاة لله وأساسها الاستقامة والتوبة؛ فإذا كانت المعجزة هي خرق للعادة على سبيل تحدي النبي للمكذبين بمعجزته، فإن الكرامة هي الأخرى خرق للعادة ولكن على سبيل تصديق الولي للنبي، ولذلك يردد المتصوفة أن الأولياء ورثة الأنبياء.

وإذا كان الخطاب الصوفي في تاريخ المغرب يركز على الجهد الفردي في تحقق التصوف وحصول الكرامة، والارتقاء في المعراج الصوفي من مرتبة "المريد" إلى "القطب"؛ فإن التنظيمات الصوفية استندت إلى البعد

المؤسساتي، حيث ننتقل من الصلاح والزهد (إلى حدود القرن 5 و6هـ/11 و12م) إلى ظهور الطوائف الصوفية (ما بين القرنين 7 و9هـ//13 و15م)، وتعدد الزوايا (منذ القرن 10هـ/16م). وهو تحول في مفهوم التصوف وأدواره؛ إذ تطورت الممارسات والمؤسسات الصوفية المغربية لتفرز العديد من الطوائف، التي تكاملت وظائفها الاجتماعية والدينية والثقافية، كطائفة الشعيبيين (طائفة أبي شعيب آزمور)، والصنهاجيين (من طائفة بني أمغار)، والماجريين (طائفة أبي محمد صالح، ومنهم الدكاليون)، والحُجَّاج (ولا يدخل ضمنهم إلا من حجَّ بيت الله الحرام)، والحاحيين (طائفة أبي زكرياء يحيى الحاحي)، والغماتيين (طائفة أبي زيد عبد الرحمن الهزميري).

ومن ثم يمكن اعتماد معيار السند الصوفي في تحقيب تاريخ التصوف المغربي، الذي نسب إلى الجنيد فسمي عموما بالتصوف الجنيدي، والذي مر من المراحل التالية: من الجنيد إلى الشاذلي؛ ومن الشاذلي إلى الجزولي؛ ثم مرحلة ما بعد الجزولي.

ثالثا- المعالم الكبرى للتصوف في تاريخ المغرب: خضع تطور التصوف المغربي إلى العوامل الجغرافية، والتحولات التاريخية العامة سياسيا وعسكرا وثقافيا، مما جعل كرامات الأولياء والزوايا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمجالات؛ فالمقارنة بين وظائف الكرامة في كتاب "التشوف إلى أخبار التصوف" لابن الزيات التادلي وتلك التي في كتاب "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف" للبادسي -مثلا- (**ترفق مرة أخرى الوثيقة 3**) تساعدنا على فهم هذا التنوع والاختلاف، وإدراك تعدد مظاهر المجال الحيوي للأولياء في تاريخ المغرب، وكيف عملت ظروف كل مرحلة على تكييف الخطاب والممارسة الصوفيين حسب حاجات المجتمع والدولة؛ ذلك بأن طبيعة حوز مراكش وما يجاورها من المناطق التي أرخ ابن الزيات لصلحائها فرضت نوعا من الأدوار الاجتماعية للمتصوفة، على رأسها مهمة الاستسقاء والإطعام زمن المجاعات والتصدق على الفقراء (**حالة أبي العباس السبتي، الذي تنسب إليه المقولة الشعبية بالمغرب حاليا: "العبَّاسِيَّة"، و"خبزة" ابن عباس، المرتبطتان في العقلية الجمعية لدى المغاربة بالتصدق**).

أما بلاد غمارة والريف فهما منطقتان جبليتان يقل فيهما الجفاف، وعرفتا ضغطا مسيحيا على شواطئهما، وغارات القبائل الهلالية، وهو ما جعل كرامات فك الأسرى والجهاد وتدخّل المتصوفة لدى رجال السلطة لفائدة السكان، تحضر بقوة عند البادسي في كتابه "المقصد الشريف" على حساب غيرها من الكرامات. ويمكن حصر الوظائف الكبرى للأولياء في تاريخ المغرب في:

أ- الأدوار السياسية: يتفق الباحثون على الوظيفة السياسية للأولياء في تاريخ المغرب، وذلك لارتباط التصوف باستتباب الدولة المركزية في تاريخ المغرب (حالة الدولة الموحدية، والمرينية، والسعدية، والعلوية). وهو ما تنبه له السلاطين فبادر بعضهم إلى تقريب المتصوفة والزوايا، كدأب السلطان يعقوب المنصور الموحدي الذي "انتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علمِ الحديث صيتٌ، ... ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء"، "والبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحَمْلهم إليه"، كما يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب".

وإذا كان لهذه الميول الصوفية للسلاطين من معنى، فإنها تدل -في المقابل- على نفوذ المتصوفة باعتبارهم "قوة باطنية" طفت إلى سطح المشهد التاريخي وأثرت فيه ووجّهته، وأعادت -بموجب ذلك- ترتيب العلاقة بين الولي والسلطان؛ ذلك بأن الأولياء يريدون إثبات اندماجهم في المجتمع ودعمهم للدولة. أما السلاطين فإنهم يبحثون عن شرعية الحكم والموازاة بين السلطة السياسية والسلطة الدينية، ولنا في حالة الدولة المرينية أنموذجا واضحا على جدلية الأمراء والأولياء في المشروع الحضاري للدولة المغربية في نهاية العصر الوسيط.

ب- **الوظائف الدينية**: ظل الارتباط بين التصوف والفقه المالكي والعقيدة الأشعرية، أهم معالم الممارسة الصوفية في تاريخ المغرب، وهو ما عبر عنه أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت. 297هـ/909م) الذي ينسب إليه التصوف الجنيدي بالمغرب، بقوله: "من لم يحفظ القرآنَ ولم يكتب الحديثَ لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن طريقنا مقيَّدة بالكتاب والسنة". ومن ثم بات من الطبيعي أن يلتزم المتصوفة الاعتدال في خطابهم الصوفي.

وتركزت جهود المتصوفة في هذا الصدد على ترسيخ لمفاهيم الإسلام السني، وتمتين الروابط العلمية بالمؤسسات الثقافية الأخرى من خلال اعتناء الربط والزوايا بالنشاط العلمي، وجلب كبار العلماء والمتصوفة لتنشيط التعليم بالزوايا والرباطات، سواء داخل المغرب، أو بالسودان الغربي، أو بالمشرق الإسلامي.

ج- **الأدوار الأمنية (الركب الصالحي)**: أدى اختلال الأمن في الطرق التي كانت تمر منها القوافل التجارية والحجية إلى إفتاء بعض الفقهاء بإسقاط فريضة الحج على المغاربة، وهو ما انتقده الصوفي أبو محمد صالح الماجري (ت. 631هـ/1234م) الذي أمَّن الطريق إلى الحج، من خلال تأسيس "ركب الحاج الصالحي" (**ترفق الوثيقة 4**)، الذي كان ينطلق من آسفي في اتجاه الديار المقدسة، وعين أبو محمد صالح على طول الطريق عددا من مريديه لتنظيم السفر، وتأمين الطريق، وتوفير حاجات الحجاج، فأقام لذلك ستا وأربعين (46) زاوية بين عبدة وبلاد الحجاز للقيام بتلك المهام، مما شجع الناس على الحج.

د- **الأدوار الاجتماعية**: من خلال الاستسقاء زمن القحوط، وإطعام الطعام في وقت المجاعات والأوبئة، ومداواة المرضى. ونذكر هنا جهود أبي العباس السبتي، وأبي يعزى (**الوثيقة 5**)؛ فقد اختص الأول بالتصدق على الفقراء، حتى قال فيه ابن رشد الحفيد: هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود. وأما الثاني فكثيرا ما قصده المرضى للاستشفاء بكراماته.

خلاصات: وبذلك نلاحظ أهمية التصوف في تاريخ المغرب باعتباره إحدى المؤسسات الثابتة في المجتمع والسلطة والثقافة، وتميز بوحدة السند الذي جعلنا نتحدث عن التصوف الجنيدي، وتنوع الرباطات والزوايا، التي تكاملت أدوارها مع أدوار السلاطين والعلماء، فاندمجت بذلك السلطة السياسية بالسلطتين العلمية والروحية.

الوثائق المرفقة

الوثيقة 1

ESSAI SUR L'HISTOIRE DES CONFRÉRIES MAROCAINES

Les confréries religieuses ont joué un grand rôle dans l'histoire générale de l'Islam et plus particulièrement dans celle de ce qui est aujourd'hui notre Afrique du Nord.

L'histoire complète de toutes les Zaouïas et des Confréries qui en sont issues constituerait un immense travail qui a été fait en partie en Algérie, qui a été effleuré au Maroc et qui ne pourrait être mené à bien que par une longue et patiente collaboration de tous les Services Indigènes de l'Afrique du Nord. Il ne peut donc s'agir ici que d'un exposé très succinct et forcément très incomplet, où toutes les innombrables ramifications des confréries seront négligées et où les lignes principales seules seront indiquées.

Ce n'est guère qu'à partir du XIe siècle de notre ère, que l'on retrouve jusqu'à présent au Maroc, le souvenir de confréries organisées.

Deux d'entre elles ont été le point de départ des deux grandes dynasties berbères des Almoravides et des Almohades.

La première, celle des *Mourabitin*, a été fondée au commencement du Ve siècle de l'hégire (J.-C. XIe) par Ouagag ben Zaloua el-Lamti dans le Sous, où il avait, en revenant de Qairouan, créé une zaouïa sous le nom de *Dar El-Mourabitin*, la maison de ceux qui sont liés, sous entendu par l'obéissance à leur chaikh. Son disciple, Abdallah ben Yasin, après avoir été le chaikh de Yahia ben Ibrahim El-Djedali et de Yahia ben Omar El-Lemtouni, rois des Cinhadja, fonda en 1061 avec leur successeur Aboubekr ben Omar El-Lemtouni, la dynastie des Mourabitin, dont nous avons fait les Almoravides.

En 1121, la dynastie des Almohades prenait naissance à la zaouïa de Tinmalel, fondée par Mohammed Ibn Toumart El-Barghi, disciple du fameux Imam Abou Hamid El-Ghazali.

De son enseignement, Ibn Toumart avait tiré la doctrine du *Taouhid*, l'Unification, et de l'adoration et la glorification de Dieu qui doivent être le seul but de tous les actes des hommes. Ses disciples prirent le nom d'*Al-Mouahiddoun*, les Unitaires, les Almohades.

Pour retrouver les doctrines fondamentales des confréries, il faut remonter au IIe siècle de l'hégire (IXe siècle de J.-C.), à l'époque où la religion du Prophète pénétrait jusqu'en Perse; l'Islam arriva là

HESPERIS

ARCHIVES BERBÈRES & BULLETIN DE L'INSTITUT DES HAUTES-ÉTUDES MAROCAINES

Volume 1
1921

edaraf

الوثيقة 2

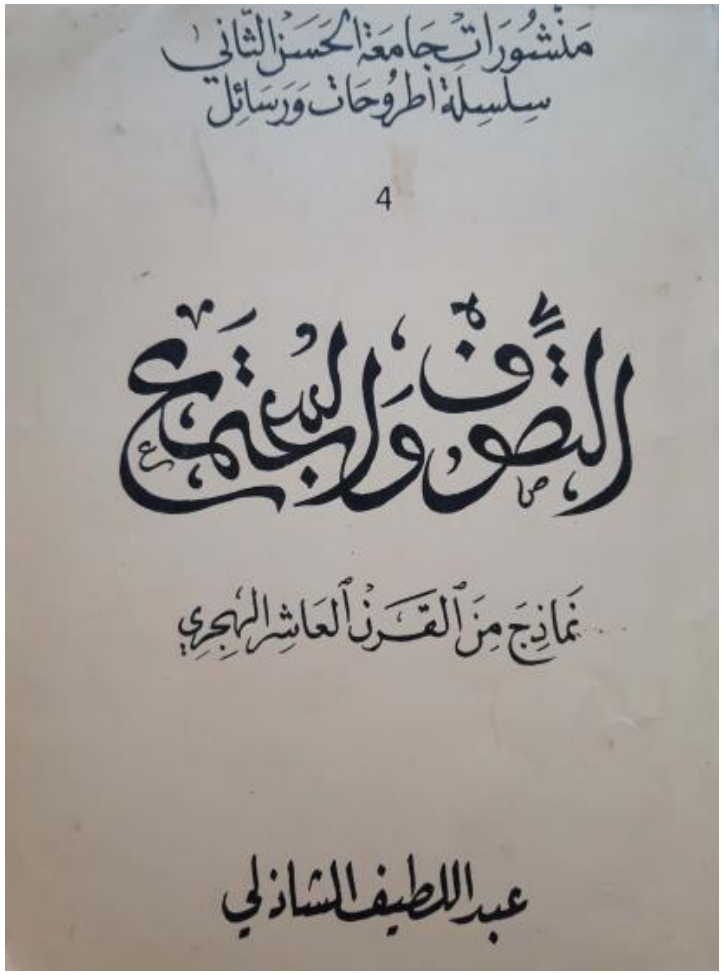
منشورات جامعة الحسن الثاني
سلسلة أطروحات ورسائل
4
التصوف والمجتمع
نماذج من القرن العاشر الهجري
عبد اللطيف الشاذلي

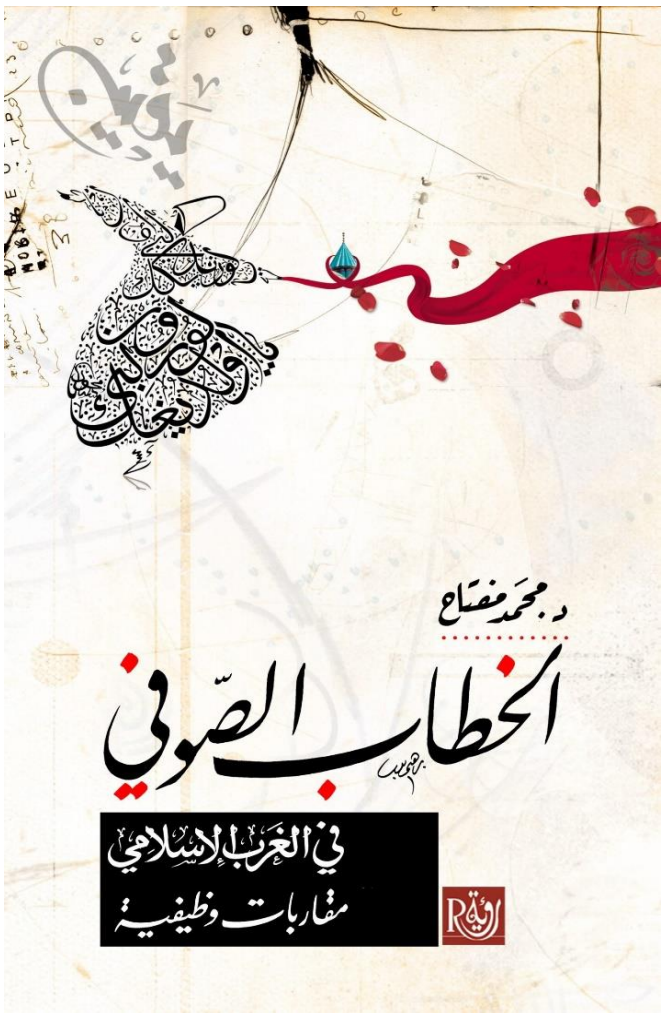
د. محمد مفتاح
الخطاب الصوفي
في الغرب الإسلامي
مقاربات وظيفية

الوثيقة 3

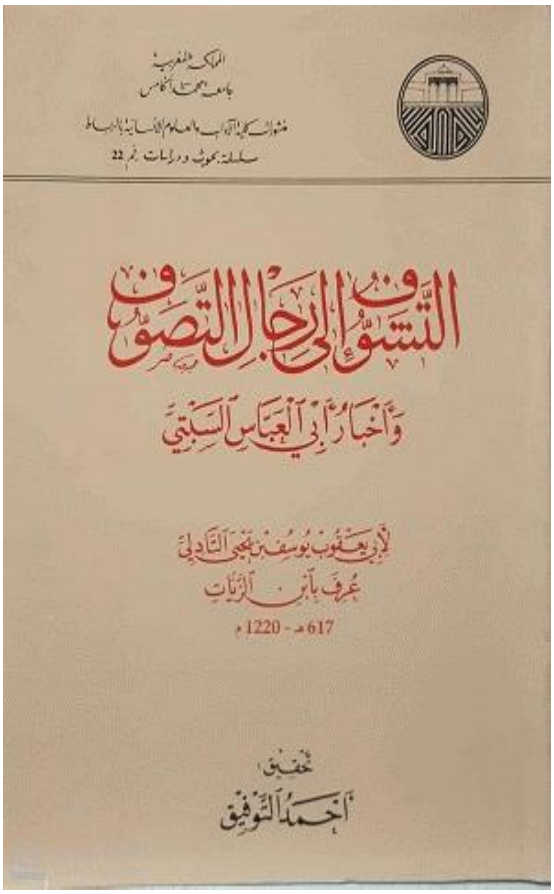
المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة بحوث ودراسات رقم 22
التشوف إلى رجال التصوف
وأخبار أبي العباس السبتي
لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي
المعروف بابن الزيات
617 هـ - 1220 م
تحقيق
أحمد التوفيق

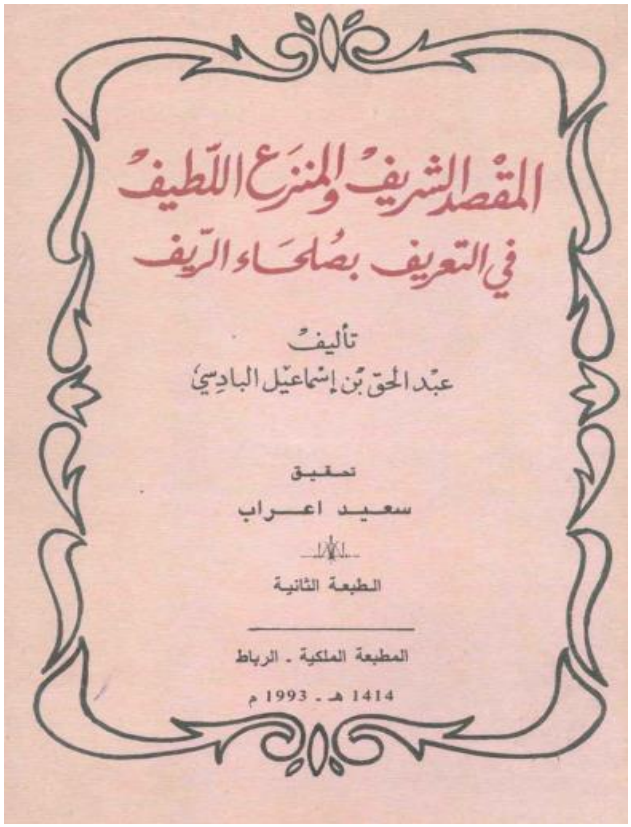
المقصد الشريف والمنزع اللطيف
في التعريف بصلحاء الريف
تأليف
عبد الحق بن إسماعيل البادسي
تعليق
سعيد اعراب
الطبعة الثانية
المطبعة الملكية - الرباط
1414 هـ - 1993 م

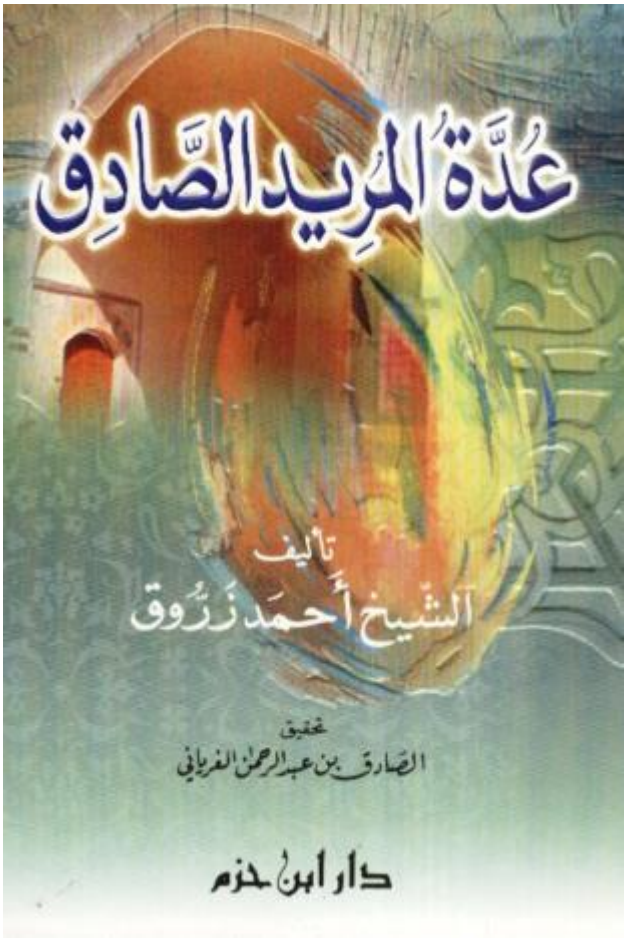
عُدَّةُ المُرِيدِ الصَّادِقِ
تأليف
الشيخ أحمد زرّوق
تحقيق
الصادق بن عبد الرحمن الغرياني
دار ابن حزم

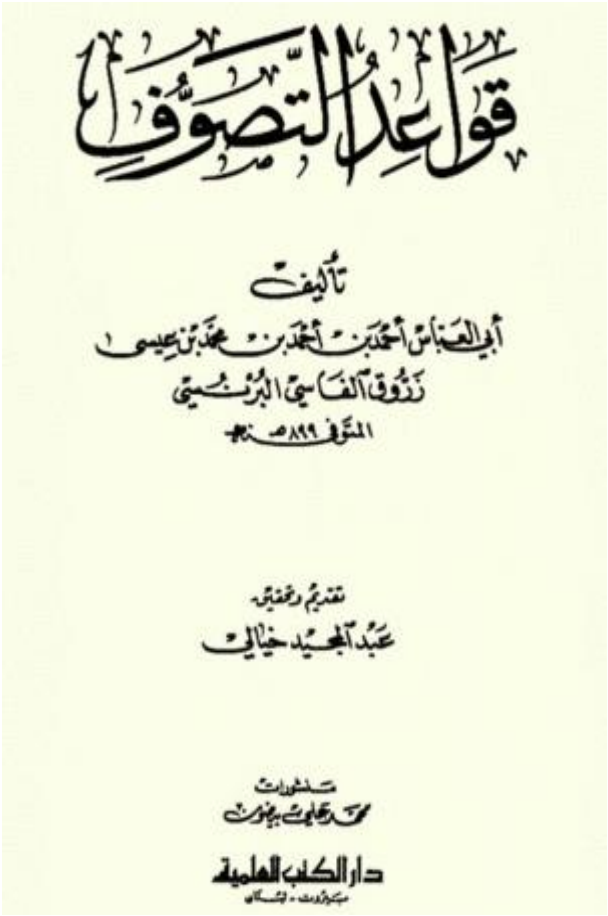
قواعد التصوف
تأليف
أبي العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى
زروق الفاسي البرنسي
المتوفى ٨٩٩ هـ
تقديم وتحقيق
عبد المجيد خيالي
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية

الوثيقة 4

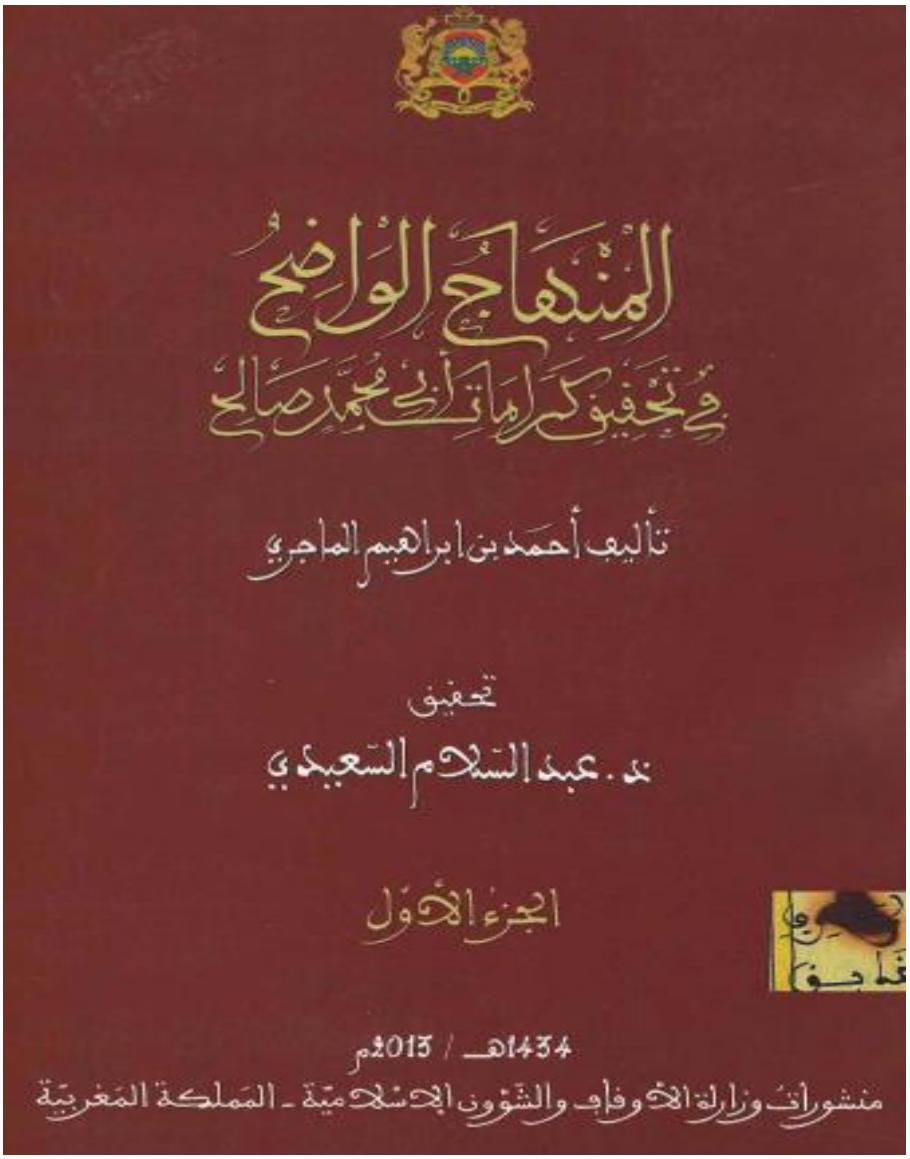
المنهاج الواضح
في تحقيق كرامات أبي محمد صالح
تأليف أحمد بن ابراهيم الماجري
تحقيق
د. عبد السلام السعيدي
الجزء الأول
1434هـ / 2013م
منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الوثيقة 5

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

أخبار أبي العباس السبتي

الحمد لله حق حمده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده ، وعلى آله وصحبه وجنده ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين من غير تقييد لعهده ، أما بعد فإني لما شرعتُ في تأليف أخبار صالحي المغرب الذين جمعتهم في كتابي الموسوم بـ «**التشوف إلى رجال التصوف**» ، أشار عليّ جملة من الفضلاء أن أذكر فيهم الشيخ الفقيه الصالح أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي ، فتوقفت في ذلك ، إذ لا يكفي في ذكره الاختصار لما وقع فيه من الاختلاف ، فرأيت أن أفرد ذكره وأبسط أخباره حتّى يعلم منْ ذلك الواقف بذلك على مجموع عيون أخباره حقيقة أمره . وبالجملة ، فإن شأنه من عجائب الزمان ، وإنما أثبت من أخباره ما ينوب عن العيان ، وكان رحمه الله قد أُعطي بسطة في اللسان وقدرة على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، وكان سريع الجواب ، وكان القرآن ومواقع الحُجَج على طرف لسانه عتيدة حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب وبسحر العامة والخاصة ببيانه . يأتيه من يأتيه للإنكار عليه فما ينصرف عنه إلا وقد سلم له وانقاد لقوله ، وسأثبت لك من أخباره ما تقضي به العجب وبالله أستعين على ما يُزلف لديه من القوة والعمل ، وأسأله العصمة من الخطأ والزلل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

451